

قالت العرب

أنا لا أكتب الأشعار فالأشعار تكتبني ، / أريد الصمت كي أحياء، ولكن
الذي ألقاه ينطقني ، / ولا ألقى سوى حزن، على حزن، على حزن ، /
أأكتب أنني حي على كفتي ؟ / أأكتب أنني حر ، وحتى الحرف يرسف
بالعبودية ؟



«العمانية» صفة يجب أن تدخل معاجم اللغات:

العمانيون تحضر ومدنية لم أشهد لهما شبيهاً في جميع رحلاتي عبر العالم



ليس هناك أي شك بأن المجتمعات، رغم تفاوت بعضها في العديد من المشاكل والصعوبات التي تواجهها على الصعيد السياسي والاقتصادي والاجتماعي. وإن نظرنا إلى البلدان العربية، فنجد أن مشكلاتها هي من بين الأصعب في العالم، وتتراوح بين انعدام أو انحسار الحريات السياسية وحقوق المواطنة والحريات المدنية إلى مشاكل الفقر وانعدام فرص الحياة الكريمة إلى الانتماءات الطبقية التي عادة ما تكون أرضاً خصبة للفساد والجريمة، هذا إن لم نذكر الحروب الداخلية والخارجية، التي في النهاية تقلص من فرص التقدم. وقد زرت معظم البلدان العربية ولاحظت الكثير من هذه المصاعب التي تنعكس على الحياة اليومية، وما يصادفه الزائر لهذه المجتمعات عند احتكاكه معها. غير أن زيارتي الأخيرة لعمان، ذلك البلد الذي يقع في الزاوية الجنوبية الشرقية للوطن العربي، والذي قلما نجده متصدراً نشرات الأخبار أو منشآت الصحف اليومية، أو حتى المقالات التي تتناول حالات المجتمعات العربية، لتسلط الضوء على نجاحاتها أو إخفاقاتها! لا أدري ما السبب وراء ذلك، ولكنني أجد ذلك معروفاً حتى في الغرب، حيث أعيش. فالأوروبيون بشكل عام قلما تجدهم يجهلون مصر أو العراق أو سوريا أو لبنان أو المغرب أو الجزائر أو السعودية أو الإمارات.. الخ، ولكنهم بشكل عام يجهلون عمان! وهذا ما دعاني إلى زيارة عمان التي كنت قد خطمت لها قبل ثلاثة أعوام، إلا أن حلول وباء كوفيد منعتني من ذلك، حتى فتحت الحدود وأصبح السفر أقل صعوبة.



دلك كله هو التعامل الإنساني البحت عند العمانيين، الذي تحيرت في أن أطلق عليه أي نعت أو صفة يمكن أن ينعت بها غير العمانيين. صفة التسامح لوحدها لا تكفي لوصف العمانيين، كذلك قبول الآخر واحترام ما لدى الآخرين وذوي الأخلاق الحميدة والذوق الرفيع وتمييزهم بالتأني والهدوء وبالنزاهة مد يد العون.. الخ، كل هذه إلا صفات منفردة، وليس هناك في اللغة، على حد علمي، كلمة واحدة تجمع كل هذه الصفات. لذلك وجدت أن كلمة «العمانية» يمكن أن تدخل في اللغات لتجمع كل هذه الصفات وتعتبر عن قيم وسلوك لأي إنسان يتعلم بما يتعلم به العمانيون. ربما يظن البعض أنها مبالغة مني، ولكنها تبقى انطباعاً رافقاً طول الرحلة، ولليوم أجد من يحبني في الرحلة يحاول أن يقلد العمانيين في الحياة اليومية.



يحدث فقط في عمان في رحلاتي حول العالم صادفت بالطبع أناساً يتحلون بوحدة أو أكثر من هذه الصفات، ولكنني لم أصادف ناساً يتحلون بالعديد من هذه الصفات في آن واحد، ولم أصادف شعباً يمتلك هذه الصفات بغض النظر عن انتماءاته وطبيعته حياته، فالعماني يتكلم كآخر ولكن يعامله كمنه ويبدى استعداده لمساعدتك إن احتجت لها وإنما كنت، في الطريق العالم أو في البيت أو في المحلات التجارية أو حتى في مركز للشرطة. في ظهيرة أحد الأيام، عندما كانت الأسواق مغلقة والناس يتمتعون بقبولة النهار، توقفت عند موقف لسيارات الأجرة لأتأكد من وجهتي التي كنت أقصدها من سائقي سيارات الأجرة الذين كانوا قد تركوا سياراتهم للتمتع بالحديث مع بعضهم وشرب الشاي والقهوة. ولكن سرعان ما اختلفوا بينهم عن أقصر الطرق إلى وجهتي، ففضض أحدهم وطلب مني أن أتبعه في سيارتي. بعد بضعة كيلومترات قطعنا على الطريق، هو في سارة الأجرة وأنا في سيارتي، وأشار لي من المكان المقصود ورجع أدرجه دون أن يطالبني بأي مقابل، ولم يتكلم بذلك، بل دعاني والأوروبيين الذين كانوا يرافقونني إلى طعام الغداء في بيته لأن «في أوقات الظهيرة تكون جميع المطاعم مغلقة» كما أخبرني.



وفي محل بيع شرائح الهاتف الجووال والأشتراكات الهاتفية، نقل أحد الزبائن، دون أن أطلب منه ذلك، رصيدها إلى جوالي بعد أن تمزق على البائع التعرف على الكارت البنكي الذي كنت أحمله. وكذلك هنا، لم يطلب هذا العماني أي مقابل، بل اكتفى بالمعونة وذهب لحاله مودعاً بكل أدب، وفي إحدى القرى، شاهدت إحدى السيدات وتعرفت على نظرات الفضول في أعيننا، فلم تتوان في دعوتنا إلى دخول منزلها لترينا بفرح متواضع كيف تعيش أسرة عمانية في هذه القرية، بعد أن قدمت لنا البطح والقهوة العمانية الشهيرة التي يقدمها أي عماني لأي زائر مرحباً بمجيئته، حتى في مركز الشرطة، يقدم لك الضابط ذلك خلال فترة الانتظار، بعد كل ساعة التجارب، بتنا نسال بعضنا، في أي بلد صادف أي متاً مثل هذه الضيافة؟ وفي أي مكان عام أو خاص، وحتى في المحلات التجارية، تعرض المنتجات ليتذوقها أو يجربها الزبون مجاناً، ودون أي شرط للشراء، وإن كانت المنتجات من المكسرات أو التوابل أو الفواكه أو الحلوى العمانية الشهيرة.

غير أن السؤال يبقى عائلاً في ذهنهم، ترى ما هي الأسباب أو القوميات أو الأحداث التي جعلت من شعب يتحلى بهذه الآداب والأخلاق الفريدة؟ مختلفاً بها عن شعوب العالم أجمع. سؤال لم أستطع الأجابه عليه، فهل لي أن أعزى ذلك إلى حفاظ العمانيين على تراثهم وتقاليدهم التي طوروها تبعاً إلى رغبتهم وبسرعة سريع مجتمعهم، بينما تشوهت عند الشعوب الأخرى بفعل دخول الاستعمار وتعاقد السلطات القمعية؟ لكن هذا ليس إلا مشجباً سهلاً يمكن أن أعلق عليه كل الأسباب والعلل التي تعانى منها شعوب المنطقة. هل لي أن أعزى ذلك إلى التقاليد الدينية المتسامحة، أم هو الكنازف الشائع بين العمانيين وحجم الحقيقي لبلدهم؟ أم هو الفخر المتواضع بما لديهم؟ هل هي قوانين المساواة التي لا يجدها عند أكثر الشعوب مدنية؟ هو التعليم المبكر والذي يذكر باحترام الآخر وقبوله بغض النظر عن اختلافه؟ وربما تكون الأم العمانية وراء كل ذلك، فهي تربي أولادها وتعلمهم هذه الاخلاق منذ ولادتهم في حضنها؟ أو ربما يكون كل ذلك مجتمعاً ولكنه يبقى في جميع الأحوال سؤالا على الباحثين في علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي أن يجيبوا عليه. ما لي أن أقوله للزائر الآن هو، أن العمانيين يبدون لي وكأنهم يتحلون بصفات لا تنتمي لهذا الكوكب، وكما يعرف انساناً بهذه الصفات في علم الاجتماع بأنه ذو فاضل، أجد العمانيين يتحلون بصفات إنسانية يجمع الفاضل العاطفي والمادي في آن واحد. ولي أن أعترف، أن هذه الصفات لم أصادفها في أي بلد عربي أو أوروبي أو أمريكي أو شرق آسيوي أو أفريقي، صفات أخبرت القصص أن الأنبياء اتبعوا في التاريخ لكي ينسجوا شعوب الأرض تتحلى بهذه الأخلاق، والظاهر أن العمانيين فقط من اتبع وصايا الأنبياء. لقد تركت هذه الزيارة أثراً في وجداني يجعلني أظن على أن أتلى يوماً بهذه الصفة.. «العمانية».



وعادت سكانها، ثم غادرتنا الصحراء إلى مدينة صور، التي اتخذها الفينيقيون مركزاً لهم وهم الذين أطلقوا هذا الاسم عليها تيمناً بمدنية صور اللبنانية، كما يذكرنا التاريخ لتعود مرة أخرى إلى مسقط، ولم يفتني التوقف في العديد من المدن الصغيرة والقرى الواقعة بين هذه المدن. وقد استطلعت أن احتك واتعرف على معظم المكونات السكانية لهذا البلد، من سكان المدن والقرى والحيال والصحراء والموانيء. كما أن هذه المدن هي الأهم والأكبر في عمان، وتشكل مجتمعة دائرة تضم في داخلها السهول والجدال، ويتاخم محيطها الصحراء، التي هي جزء من صحراء الربع الخالي، والسواحل الخلابة والامتدائية في طولها، وهذه المدن وما يحيطها تضم معظم الآثار العمانية التي ساهمت في صبورة البلد وصبورة اهله منذ عصور قبل التاريخ وحتى يومنا هذا. فهناك القلاع والحصون التي تشهد على حياة لا مثيل لها في مكان آخر، وكل مدينة لها قلعة حصن وسوق وسور المدينة القديمة، ثم ترميمها بعناية ومهنية عالية لتتف اليوم شاهدة لكان يوماً وجهه يؤمنه الناس من جميع أنحاء العالم ليرجعوا بخيرات لا يقدونها في بلدانهم أو في البلدان المجاورة لهم، وكما للتلل المدلل في المثل الدنماركي أكثر من اسم، لعمان كذلك، فقد سماها السومريون «مجان» بمعنى الميناء وقبولها «بجبل النحاس» لشهرة أهلها في استخراج النحاس الذي كان يعتمد عليه العالم، وأطلق عليها الأوروبيون اسم «بلاد البخور» وتوازناً مع طريق الحرير سميت بطريق البخور، والحقاً بلد اللبان، كما سماها الفرنسيون.. وهكذا لعمان أكثر من اسم، وحقا يستحق هذا البلد أن يكون مدلاً، لا بل العالم بخيراته وموارده الفريدة. غير أن العالم اكتفى بالموارد والخيرات العمانية وقاته أن ينهل من عمان والعمانيين ما هو أهم من الموارد والخيرات، شئ فريد لم أصادفه في أي بلد آخر، ولم أحملم أن أصادفه يوماً، وإن حدثني أحد عنه نقلت أنه ضرب من الخيال أو على الأقل مبالغة من الراوي.

ما أتحدث عنه الآن وما شكلي في مفاجأة جميلة هو طبيعة العمانيين التي تختلف حتى عن كل العرب والمسلمين، في عمان جميع شعوب البلدان التي زرتها وعشت فيها. في عمان يتقابل العماني بالترحاب غير المعهود، بغض النظر عن لون بشرته أو شكل ملبسه، إن كنت رجلاً أو امرأة، إن كنت عربياً أو أجنبياً، إن كنت شاباً أو شيخاً... فهو لا يقابلك إلا لكونك إنساناً مثله، وعليه أن يساعدك دون أي حساب لأي مقابل، فقط لأنك غريب. والعمانيون ينسابون، رغم اختلاف انتماءاتهم الاجتماعية والاقتصادية، لتأدية العون لمن يصادفونه، إن كان ذلك في المدن الكبرى أو في القرى أو في الصحراء، وعلى الرغم من مظهره الذي يصرخ بأنك لست عمانياً، وذلك لأن للعمانيين زيهم الخاص الذي

بدأت رحلتي، وصحيتي الأوروبية، في العاصمة مسقط، ثم توجهت إلى العاصمة القديمة صحار، ثم المدينة الأثرية نزوى التي كانت أيضاً العاصمة في عصور الإسلام، بعدها دخلنا الصحراء ومكثنا فيها لكي نتعرف على بدوها ووطنها بداية الرحلة

بدأت رحلتي، وصحيتي الأوروبية، في العاصمة مسقط، ثم توجهت إلى العاصمة القديمة صحار، ثم المدينة الأثرية نزوى التي كانت أيضاً العاصمة في عصور الإسلام، بعدها دخلنا الصحراء ومكثنا فيها لكي نتعرف على بدوها ووطنها بداية الرحلة

بدأت رحلتي، وصحيتي الأوروبية، في العاصمة مسقط، ثم توجهت إلى العاصمة القديمة صحار، ثم المدينة الأثرية نزوى التي كانت أيضاً العاصمة في عصور الإسلام، بعدها دخلنا الصحراء ومكثنا فيها لكي نتعرف على بدوها ووطنها بداية الرحلة